بشر فارس



مفرق الطريق

إلى سيدي الدكتور عبد الرزاق بك السنهوري

ذكرى رحلة إلى أوربة

القاهرة ١٩٣٦

قد رسمت الغلاف الفنّانة الفرنسيّة SUZANNE JOFFROY في باريس
وخطّ العناوين والتزاويق الرسّام حسن مكاوى نقلاً عن تصميم وضعه المؤلف
وأعان المؤلف على إخراج الكتاب فى شكله الفنّى الأستاذ محمد زكى خليل
وأنجزت مطبعة المعارف الطبع . وكان الفراغ منه فى مصر
لسبعٍ خلون من شهر مارس سنة ثمانٍ وثلاثين وتسعمائة وألف
وبلغ عدد نسخ هذه الطبعة ستمائة وخمسين
منها ثلاثمائة وخمسون على ورق *Croxley Super Brochure*
خمسون مرقومة من ١ إلى ٥٠ ليست للبيع
وثلاثمائة مرقومة من ٥١ الى ٣٥٠
ثم ثلاثمائة على ورق *Croxley*
Antique Laid مرقومة من
٣٥١ إلى ٦٥٠ . ورقم
كل نسخة فى
آخرها

بشر فارس

مفرق الطريق

مسرحية في فصل واحد

للمؤلِّف

(باللغــة الفرنسيّــة)

« العِرض عند عرب الجاهليّـــــة » ، بحث فى علم الاجتماع .

رسالة لشهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس (السوربون) . باريس ١٩٣٢ .

« المشكلات التى تعرض للكاتب العربىّ الحديث من جانب اللغــة والثقافة والاجتماع . . . »

(محاضرة أُلقيت فى معهد الدراسات الإسلامية لجامعة باريس .) باريس ١٩٣٦ .

« مباحث »

نشرت فى ذيل « دائرة المعارف الإسلامية » الصادرة فى لَيْدِنْ (هولانده) .
وقد نقلتْ هذه المباحث إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية وظهرت بهما فى السِّفر نفسه .

تحت الطبع (فى رومه) :

« مكارم الأخلاق » ، عبارة أخّاذة ترجع إلى الأخلاقيّات التقليديّة .

(محاضرة أُلقيت فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى رومه ، سبتمبر ١٩٣٥ .)

(باللغة العربيّة)

« قطعة لحم »

(قصة فازت بجائزة مجلة « الهلال » فى « مباراة القصة المصرية » ونشرت فيها ، أغسطس ١٩٣٤ .
ثم نقلها Herbert Melzig إلى اللغــة الألمانية ونشرت فى صحيفــة فْرَنْكْفُرْتِرْ تْسَيْتُنْج
فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٧ .)

معدٌّ للطبع :

« مباحث عربيّـــــة »

« رسائل فى النقـــد »


توطئة

إنَّ وجهة هذه المسرحيَّة ممّا انساق له قلمى ورفَّت إليه نفسى بعد التحصيل والرويَّة والاجتهاد. فرأيتُ أن أصنع للمسرحيَّة مقدّمة أبسط فيها الأسلوب الذى أجريْتُها عليه، فضلاً عن قصائدَ نظمتُها قد وقف على مقاصدها من يدأب فى قراءة «المقتطف» خاصَّةً، لكى تكون بياناً لبعض ما نشرتُه حتى اليوم ثم بعضِ ما أنا ناشر بعده إن شاء ربُّك.



هذه قصة تمثيليَّة على الطريقة الرمزيَّة — إذا شئت. وليست الرمزيَّة ههنا بموقوفةٍ على الرمز بشىء إلى شىء آخر. ولكنَّها — فوق هذا — استنباطُ ما وراء الحِسّ من المحسوس وإبرازُ المضمَر وتدوينُ اللوامع والبواده، بإهمال العالمَ المتناسِق المتواضَع عليه المختلَق اختلاقاً بِكَدِّ أذهاننا، طلباً للعالمَ الحقيقىّ الذى نضطرب فيه رضينا أو لم

نرضَ : تدهشنا ظواهره وتَروعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه — عالمَ الوجدان المشرق والنشاط الكامن والجماد المتأهِّب للتحرُّك إلى ما يجرى بينها من العلاقات الغريبة والإضافات التائهة فى منعطَفات الروح ومثانى المادَّة ، يَشترك فى كشفها الإحساسُ الدفين والإدراكُ الصِّرف والتخيُّلُ المنسرح :

كلُّنا يطوى فى المكان القصىّ من سريرته شيئاً لا بدَّ له من أن يُقال — شيئاً أجنبيًّا عمّا يتَّصل بالمألوف أو المنتظِم أو الاجتماعىّ . صاحبهُ يكتُمه حتى من نفسه وربما جهله ، على أنه يتكلم ويتحرّك وهذا الشىء شاغلُهُ بحيث تُمسى طائفة مُعيَّنة من أقواله وأفعاله مجموعة رموزٍ ، لا رموزُ آراءٍ تنكشف مصادرها وتطَّرد مجاريها ولكنْ رموز نزعات مُبهمة وممكِنات ضائعة وممتنِعات مُتَمثّلَة ومغالَبات إنما تُرتقب عواصفُها فى الساعة التى يهمّ فيها الظلام أن ينفرش فيتصوَّر المرتقبُ هزيزَ الريح وصفق الموج — ثم إنَّ مثل هذا الشىء لا يُفصَّل ولا يعلَّل ولكنَّه يُعرض خطفاً . فكأنَّ المنشىء يتوجَّس كيف تجاوب نفسُه جَرْسَ الأشياء الخارجيّة من دون أن يتحمّل ترتيبَها ولا تأويلها ، فيَعدل عن البسط والتبيين إلى إثبات البرق الذى التوى فى السحاب فغزا الظُلمةَ لحظةً ، كأنَّما البرق آية وَحْى .

وبَعيدٌ أن يكون الرمز لوناً من التشبيه أو الكناية إلى غير ذلك من ضروب المجاز ، للذهن فى وضعها ثم قبولها الحظُّ الأعلى . بل هو صورة أو قُلْ سِرب صوَرٍ جزئيةٍ ينتزعها المنشىء من المبذول كما تُنتزَع الأشكالُ من هيئات الموجودات على مِرْقَم رسّامٍ موفور الحواسّ ، مشغول المخيِّلة ، مُحدَّث القلب ، يَعُدُّ الملموسَ مُنبثَقَ الانطلاق إلى عالمٍ أمْثَلَ ، إلى عالَمٍ روحانىّ يوفِّق بين الواقع والموهوم . فيجعل ذاته

الفنّانةَ تعكس على اللوح الموضوعَ المرئىّ بفضل عينين دُرِّبَتا على لمح مشاهداته الباطنة . فيمزجُ الرسمُ لوائحَ الرسّام بالخارجيّات ، فتنسجم سرًّا : كأنَّ الخطوطَ الأُفقيّةَ انبساط نفسه ، والخطوطَ العَموديّةَ انبعاثها ، والدوائرَ انطواؤها ، والمنحنيات انقباضُها ، وكأنّ الضياء من صَحوها ، والظلالَ بعضُ مشكلاتها ، وكأنّ الوجوهَ الوضّاحةَ أشواقُها ، والمناظرَ المُغبرّةَ من غمومها : الوجدانىُّ يحِلُّ فى المادّىّ ، حتى إنّ الأشكال ربّما تبدو ناقصةً أو مختلّةً أو مائلةً تتردَّد عند حدود المعقول لمن لم يكن موطّأ الفهم لها ، مُرهَفَ البصيرة .

وذلك بأنَّ هذا الرسّام لا يكاد يَحفِل بالمنْطِق ، لأنَّ المنطق اصطلاحٌ آلتُه العقل ، والعقل إنما يُجرِّد الأشياء أو يُشذِّبُها ثم يُغفل بعضها أو يجهل بعضها . فالتوضيح الذى ينتهى إليه أقرب إلى الاختراع منه إلى التحقيق . والعرفان الجُدُّ شعورٌ بالحقيقة لا العلم بها . وبين العقل والشعور ما بين الهَضْبة الصَّخِرة والروض الرفّاف .

وإنْ قيل إنَّ المنطق هو القانون بل المعيار بل ضابط التناسب ، وإنْ قيل إنَّ المنطق كمِثل الزخرفة العربيّة فى أبعادها ومسافاتها ومقاديرها فمما لا يرتقى الشك إليه أنّ المنطق ينشأ عنه تدبيرٌ معقولٌ إنّما يُعوزه لهَب الحياة : أُنظر إلى صورة اتّفق أهل الدراية على أنّها خطّافة للعين تُصِبُ فى جوانبها شيئًا يترجرج — شيئًا يقول لك : « بينى وبين بصرك صلة ، صلة اليقظة والإحساس بالوجود » . ثم انظرْ إلى رسم لا يخرج عن خطوطٍ هندسيّةٍ غاية فى الدقّة أفَلا تَقبض صدرَكَ البرودةُ المنسابة فيه ؟ هذا الرسم الذى دبَّره العقل من باب الحساب لا يعرف السبيل إلى نفسك ، لأنّ النفس على فطرتها تهوى كل ما يرجع إلى الطبيعة الصادقة ، والطبيعة تجهل الإحكام

فى التخطيط والجمود فى التعبـــير : « الطبيعةُ – على قول المصوِّرين التأثُريِّين – les Impressionnistes – لونٌ ، تخاطبنا من طريق اهتزازته الضوئيَّة مخاطبةً متقطعةً ومتقلبة » .

ومَثَلُ المنشئ إذَنْ مثَلُ راقصة تحرف عن قواعد الرقصِ المضبوطِ فنهُ المتأمِّمِ اعتياداً لا اندفاعًا ، فتأبى أن تخطَّ أشكالًا محصورةً فى نظامٍ سرعانَ ما يُهتدى إليه ، بأن تُحلِّل النغمات وتُقطِّع الموازين لِكَىْ تردَّهما فى الفضاء وحْدَةً متماسكةً حتى التشنُّج، واضحةً وضوحًا يتفرَّق البصرُ له . وإنَّما تَـكْنى بالتلوِّى والتوتُّر ، والنزوان والتقبُّض عن انفعالات إحساسها الموسيقىّ : السماع ينقلب حركة ! فتراها تُنَقِّل قدميها على الأرض خفيفتين تهيَّأً لقفزةٍ هل تعود بعدها ؟ وتُسلِّط ذراعيْها على الخلاء الذى حولها تغرف منه طرائفَ تَهَبُها لمن تلحظه عيناها دون أعيننا ، وتمدُّ أصابعَها وتَزويها كأنّها تحُثُّ وتزجُر قلوبًا تطوف بها ، ثم تَهصِر الخصر وتُطلق العِطف وتَنفُض الثدى وتَثنى الرأس كأنّها تنادى ربًّا لا يلتفت إلى عِباده حتَّى تتأوَّه أجسامُهم فتُريد أن تنهدم . فإذا بها ترقص حَسْبَمَا يخفِق قلبهـا وينبض عِرقها إذعانًا لإشراق الساعة وانقياداً لهواجسها : فتُخلِّص الغريزة من الـكبت وتنصر الاضطراب النفسانىَّ من الاختلاج العُضوىّ ، فَتردُّ الرقص وثبةً حرَّةً ، وثبة النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية .

ولا يُستخلص من هذا أنّ الإنشاء يصبح ضربًا من الهَذَيان أو أنّه يستحيل مجموعةَ رؤًى شوارد وبَدَوات نوادر . فإنما المنشئ يعرض عن المراسيم الجامدة إرادةَ أن يحمل الـكتابة لحنًا يغلِبُ فيه الارتجالَ المُلْهَم على الصناعة الموقوفة : إذ يتجنَّب فيه النَّغم الحادىَ المعلَّقَ كالسيف الصَّدِئ فوق المقاطع واللوازم والفواصل ، ويحذف

الانتقالَ المتواتِرَ تارةً المستديرَ أخرى من القَرار حتى الجواب ثم من الجواب حتى القرار فى مجرًى متساوى النِّسَبِ منتظم التقاطيع ، وينبذ تدريج الصوت من الشدَّة إلى اللين أو من اللين إلى الشدَّة ، ويُهمل توطئة الخروج من طبقة إلى طبقة ، ويترك تَحْلِيَةَ القَفْلة . لِيُنهض التأليف على خطٍّ هشٍّ متكسّر ، ينحنى ويستقيم مع موضوع اللحن ، يُهمل ويندفع به ، كأنّما اللحنُ حديث يتجاذبه فِتْيَةٌ أَنِسَ بعضُهم إلى بعض ، فينقطع ويتّصل ويذهب ويجىء ويصعد وينخفض . وإنما الذى يحدو اللحنَ طائفة من المدّات والهَمَسات والهمَزات تُلائمه مَرَّةً وتُنافره مرّة ، طائفة من الأصوات المُفْرَدَةِ بين حادَّةٍ وثقيلة ، ومُفخَّمةٍ ومرخَّمة ، ومن النَّقَلات المنفصلة بين مقلقلَةٍ ومضغوطة ، ومقيمةٍ وطافرة ، كأنّها من فضلات اللحن تَحْكى تفاصيل موضوعهِ وتراسل تعاريجه فتساوق أنفاسَه حتى ينقضى .

بَقِىَ أنَّ هذا الإنشاء الذى يعالج ما يلى المادَّةَ المباشِرة لا صلة له بأنواع أخرى من التأليف : منها الخطابة التى تأكل أدبنا شعرَه ونثرَه منذ نشأته ، لأنَّ الخطابة حيلة ثم كذب : فإمّا أن تستر بمُفْرداتها الضخْمة وجُملها الوارمة بضاعةً ضاوية ، وإمّا أن تزوّق ما يكاد يكون مُدرَكاً وتبالغ فى التعبير عمّا يكاد يكون مُحَسّا — ومنها التحليل المطّرد اطراداً الذى يُفصِّل الآراء والميول ويشدُّ بعضها إلى بعض فتبدو بسيطة معقولة متلاحقة لأنَّ مباعثها لا تزال طىَّ الضمائر — ومنها التأثير القريب الغور الذى يهزّ أعصابك دون أن يجعلك تتقرّى العواطف البعيدة أو تجسّ الرِعداتِ الدقيقة ، بالتماسه الموضوعات العنيفة السهلة فى آنٍ نحو مقابلة الحبّ بالواجب — ومنها الوصف الواقعىّ الذى يقعد عن الخلوص إلى ما وراء المنظورات :

من خواطرَ وواردات لا تبرز لمشهد الحسّ — ومنها التلفيق الأدبيّ الذى يستلّ الأشخاص من العالمَ الإنسانىّ ، فتارةً يعليهم فتحسبهم آلهة وأخرى يَهبطهم فتحسبهم شياطين — ثم منها الإبداع الفنّى ، لأنّ بلوغ التمام المتناهى فى الصناعة نتيجة الحذق لا نتيجةُ الشعور ، وإنما نتيجة الشعور تطلّعٌ قلِقٌ إلى تمامٍ لا يتناهى .

ے ے

وبعدُ فإنّ أشخاص هذه المسرحية دُمًى تحرّكهم عواطفهم الدفينة ، كما أنّ الناس آلات فى قبضة الحياة الجائشة ، إذا هم استبسلوا فنزلوا إلى ساحتها . وقلّما يفعلون .

وكما أنّ الحياة الجائشة تُحيّر العقل الغرّ فتختلط عليه شؤونُها اختلاطاً شديداً حتى يُتاحَ له أن يتدرّب على خشونتها ويستأنس بدقائقها من طريق التألّم والتأمّل والتفهّم فيَقدر أن يُطوّح ببصره إلى الحوادث التى وقعت له حياتَه فتنتسِق فصولُها كلُّها أو بعضها بين يديه ، كذلك يحسن بمن يقف على هذه المسرحيّة — المُبْهَمةِ معالِمُها أوّلَ الأمر — أن يتدبّر نواحيها من بعد الوقوف عليها ، مستضيئاً باللاحق ليُبصر السابق .

والّذى يَزيد فى إبهام معالم هذه المسرحيّة أنّها تجمع فى ألفاظٍ معدودة طائفة من الآراء والتأثّرات صبّها الزمان فى قوالبها . وكلُّ شىء لاحق بعالمَ الفكر طال عهد نشأته واستوائه لا ينقاد للذهن دَفعةً ، بل على الذهن أن يتأنّى له يستشفُّه — وفى

ذلك من اللَّذة ما فيه . وعندى أنَّه قد حان الزمن الذى فيه أصبح الإيجاز والإيماء فى الإنشاء الرفيع أحبَّ إلى القارىء العربىّ المهذَّب من التطويل والتذييل ، حتى إذا رجع القارىء عن الحسّ الظاهر إلى الحسّ الباطن تجلَّى له ما وراء السطور . فتُدْرَكُ بذلك غايةُ الأدب العالى ، ومَدارها أن يجعل المنشىءِ القارىءَ يُشاطره فنَّه .

وأمّا لغة المسرحيَّة فقد أردتُها سهلة ، لأنَّه من العَسف أن يُغرب المؤلِّف أو يتكلّف الصياغةَ ابتغاء التهويل ، ولا سيَّما إذا ألَّف للمسرح ، ذلك أنّ المسرح إنما هو مَنْقَل ألوان الحياة . والحياة الحقُّ طفل يلهو وما يدرى أنَّه لاهٍ ، وزهرة تضوع وتَعجب لمن يستروح شذاها ، ونهر يهدر ولا يطرب لترنيمه . وليس فى هذه التعابير كلِّها تصنُّع ولا استكراه . ثم إنّ الذى أميل إليه أنَّه كلما بَعُدَ غَور التفكير فشطَّت المعانى ونزع الأسلوب إلى الإيهام والتلويح بحيث ينبسط على الكلام ظلٌّ لطيف ، جَدَرَ الأداءِ بأنْ يلتزم السلاسةَ والوضوح . على أن تُنزَّه الكتابة عن المُبتَذلات ، عن تلك التراكيب المطروقة المطروقة حتى صارت وساوسَ يَنصبها الأدب اليابس فى وجه استقلال القلم ، فتمنع الإنشاء أن يدلَّ على صاحبه دلالةً حافلة ، ثم على أن يُتَخيَّر اللفظ مُحاذَرةَ أن يزوغ مدلولُهُ عن المعنى المقصود فتهزُلَ الفكرة ، وأن تُهذَّبَ العبارة لئلّا تسقط إلى الركاكة فيسمُجَ الأدب .

القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٧

س ح

النشأة المسرح المصري

ب.ف

تبيــــين

المسرح

فى مفرق الطريق أى حيث ينفرج يميناً مُناراً وصاعداً ، ويساراً مظلماً ومنحدراً ، يلتقى العقل والشعور ، فيتجاذبان المرء ولكل منهما حظه من القوة والغلبة . وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وقد عمى رشده الى غاية تحترق عندها النفس . وأما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء فى صعود مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق ، يحيا كمثل شجرة شظف عودها وجف ورقها وذوى زهرها — على ما هو مبين فى رسم الغلاف .

الأشخاص

سميرة

نفس مضطربة تتنازعها حلاوة الماضى الموجع وراحة الحاضر المقفر ، تطمئن الى حياة يلجمها العقل ، وتجذبها حياة يندلع فيها الشعور . فهى كالموسوسة ، يبدو كلامها هذياناً لأن رأيها لا قرار له . وتراها كلما لمست الحقيقة القاحلة فزعت منها الى متمثلاتها المورقه . وإذا انقضت هذه أوت الى التلف المعنوى إرادة أن تحبس حركات نفس رغابة فى الاحتراق .

الأبله

لا يقوى على الكلام ، ولكنه يفهم كل شىء . ولا ينكشف أمره حتى ينخلع قلبه ، كمظلوم راض بما قسم له يحسبه الناس سادراً ، فاقد الإحساس فيستخفون به ، حتى إذا بغى الجرح الذى يضرب فى جنبه فار فارفض فأصاب الظالم منه رشاش يرده الى الواقع . فبكاء الأبله فى مختتم هذه القصة - ذلك البكاء الذى نزع الغطاء عن عينى سميرة فمنعها أن تبعث على يد مغريها الى الشعور — صرخة مظلوم يعرف أنه من أجلها مقتول .

هــو

عنوان الإنسان العادى ، المُنشّأ فى حلقه المواضعات الاجتماعيــة (وما أكثرها فى الشرق العربى عامة ومصر خاصة !) ، المبنى على البغى ، الرقيق لساعته ، العاجز عن إدراك المعانى المجردة حتى يؤخذ بيده فيقاد اليها فيصرعه جلالها ، ثم يود لو يعيش فى ظلها دون أن يبذل نفسه بذلا فى سبيلها كأنه يقنع بالوقوف بباب هيكلها لعله يظفر ببعض ما فاته من اللذة الخالصة ، فتعوزه الفرصة لتبدل الأحوال التى كانت تكتنفه .

المســـرح

مؤخّرُه

صفٌّ من المنازل المنخفضة على شكل المنازل التى تُصاب الآن فى الأحياء القديمة فى مصر . من نافذة من نوافذ أحد المنازل الواقعة فى الجانب الأيمن من المسرح يخرج نور . نور مصباح « جاز » كبير . المصباح لا يُرى وإذا أريد إظهاره فليكن معلقاً بالحائط بمسمار ضخم معقوف .

مقدَّمُه

طريق ضيق . على الأرض جزازات ورق وبقايا من قصب السكَّر . يمتد إلى جانبى المسرح يميناً ويساراً . الجانب الأيمن منه يضيئه النور الخارج من النافذة إضاءةً ضئيلة . وأما الجانب الأيسر فبين المظلم والمنار ، وتشتد الظلمة فى أوله من اليسار . والطريق ينحدر من الجانب الأيمن المنار إلى الجانب الأيسر المظلم . ثم إنه غير مستقيم بحيث يلتقى جانباه وَسَطَ المسرح زاويةً منفرجة .



الأشـــخاص

سميرة

امرأة فى السابعة والعشرين أو تقاربها . نحيفة ، رشيقة ، حسنة الشكل . بَشَرَتُها ضاربة إلى الصفرة . شعرها أسود متدلٍّ بعض الشىء حتى كتفيها . ترتدى « فستاناً » نظيفاً عادياً أسود لا يخلو من أناقة بسيطة ، كالذى ترتديه فتيات من العامة فى مصر لعهدنا هذا ، مشدوداً إلى ما فوق خصرها ، ليس بالواسع بحيث يشفُّ عن رشاقة جسمها ، مرتفعاً إلى أسفل العنق ، ساقطاً إلى القدمين حتى الحـذاء وإلى الذراعين حتى المعصمين . فلا يُرى من الفتـاة سوى وجهها السافر وكفَّيها . الحذاء أسود . والمطلوب أن تشتدَّ المقابلة بين سواد اللبس وصفرة الوجه واليدين .

الأبله

فتى لا عمر له . مستحكم البنية . منفوش الشعر . يرتدى « جلبيَّة بلدى » (جلباباً مصرياً) صفراء . حذاؤه أسود عتيق جداً . تبدو على هيئته القذارة .

هـو

شاب فى الثلاثين أو يقاربها . جميل المنظر . على رأسه طربوش [هذا غير واجب] . يرتدى « بدلة » لونها زاهر . وفى عروة فى أعلى « البدلة » وردة . حذاؤه أبيض . بَشَرَتُه سمراء بل شديدة السمرة .



المشهد الأوّل

الأبله ، سميرة

الأبله جالس فى الجانب المنار على الأرض ، على مقربة من جدار منزل ، بين يديه رزمة قصب سكر . يقشر قصبة بأضراسه ثم يدفع « عقلة » القصبة (الأنبوبة) الى المرأة فتمضغ منها شيئا وتعيدها اليه فيأتى عليها مصاً . من آن الى آن يضحك ضحكة خفيفة لا معنى لها . سميرة تجيء وتذهب أمامه فى هدوء وبطء . تنظر اليه أحياناً فى ذهول .
يستمر هذا التمثيل الصامت زهاء دقيقتين .
وبينما الأبله يكسر « عقلة » من عود قصب على ركبته إذ يشد العود اليه بقوة كأن أحداً يريد خطفه من خلف ، وذلك فى أثناء مرور سميرة أمامه بحيث تراه .

سميرة

ما بك ! أيريد أحد خطفَ قصبِك ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

معاذَ الله ! ومن هذا ؟

الأبله

يحاكى صوت الـكلب وهو لا يزال
قابضاً على عـود القصب بحرص

سميرة

كلب ؟ ومتى كانت الكلاب تمتصّ القصب ؟

الأبله

يضحك

سميرة

كفى ضحكاً ! كم أشتهى أن أراك تبكى يوماً ، فتبُـكينى . [مهلة] أممكن هذا ؟ [تنظر اليه] .

الأبله

يتأملها فى جد

سميرة

أممكن هذا ؟ ولِمَ لا ؟ فهذه الكلاب أصبحت تمتصّ القصب .

الأبله

يطرق

سميرة

أ كلب هو ؟

الأبله

يومىء أن نعم

سميرة

لا . إنّ هذا لا يُمـكن حصولُه . . . كما أنّ بكاءك لن يكون . [صمت] المستحيلات فى هذا العالَم معروفة [تحدّق اليه] .

الأبله

يرفع ببصر تائه اليها ورأس القصبة
بين أضراسه وهـذه لا تتحرك

سميرة تخاطب نفسها

ولربّما أحببنا أن يكون الأمرُ المستحيل ... مُمكِنـا . [مهلة] ماذا أقول ؟
لا . لا ... ولو أنَّ الكلاب أصرَّت على امتصاص القصب لقتلتُها جميعاً ، جميعاً .
[تخاطب الأبله] أتسمعنى ؟ [آمرة] إضحكْ !

الأبله

يضحك ضحكة فيها تكلف وشبه رنين أسى



المشهد الثـانى

الأبله ، سميرة ، هـو

« هو » يقدم من الجانب الأيسر فى تباطؤ شديد فينصرف الى أول منزل من هذا الجانب . يحاول أن يقرأ اسم الطريق عليه . الأبله ينظر اليه شزراً . سميرة ترمقه فى غير عناية . يقبل «هو» وسط الطريق حيث المكان بين الظلم والنار وحيث المرأة واقفة . البعد بينـه وبين المرأة مقدار « مترين » بحيث يشمـله الظلام فوق ما يشمـل المرأة . يلزم الأبله نظرته طوال الحديث الذى يجرى بين «هو» وسميرة مهملاً امتصاص القصب . يعبر عن انفعالاته فى صمت .

هـو لسميرة

من فضلك يا ستْ : هل هذا زقاق سى عبّودْ ؟ إنى — والظلمة على هذه الشدّة — لا أستطيع قراءة الاسم المكتوب على جدار هذا المنزل [يشير الى المنزل الذى كان انصرف اليه] إن كانت هنالك كتابة .

سميرة

نعم ، هذا زقاق سى عبّـودْ .

هــو

شكراً .

سميرة

هل لك أن تفيدنى كما أفدتك ؟

هــو

يشير أن افعلى

سميرة

هل بلغك ، عُمْرَك ، أنَّ الكلاب تمتصّ القصب ؟

هــو

يؤخر رجلا كمن ذعر من أمر

سميرة

سألتَنى عن شىء أفَلا يحقّ لى أن أسألك عن آخر ؟

هــو

ولكنَّه سؤال . . . سؤال . . .

سميرة في لهجة من ينفى شيئاً قائماً فى ذهن خصمه

لا غرابة فيه .

هــو

يتعجب صامتا

سميرة فى بطء

كل شىء يبدو غريباً لك إنما هو جِدٌّ معقول عند صاحبه . إن سؤالى يدهشك ، ولو جالت أفكارى فى ذهنك وتجاوبت على نحو ما تجول فى ذهنى وتتجاوب لزال دَهَشُك . إنَّ الأشياء لا وجود لها إلاّ بنا ، وكلٌّ واحد منا عالَمٌ قائمٌ برأسه .

هـو

هل لكِ أن تُجلى أفكارَكِ فى ذهنى وتجعليها تتجاوب لعلّى أقوى على الردّ ؟

سميرة   فى تهيج

إسمعْ . إنَّ هذا [تشير الى الأبله] لا يستطيع غير الضحك ، و إنى بِضَحِكِه لسعيدة . و إن عرف يوماً ما البكاء شقيت به . [مهلة] [فى تحسر كأنها تخاطب نفسها] ولكن . . . . أصادقةٌ أنا ؟ [ثم فكرتها بإشارة] وعندى أنه يستطيع البكاء إذا استطاعت الكلابُ امتصاصَ القصب .

هـو

إنى أوثر ألاّ يجولَ مثل هذه الأفكار فى ذهنى وألاّ يتجاوب .

سميرة

لأنَّها أفكار مجانين . [صمت] كلاّ ، بل هى أفكار فئةٍ من الناس يشعرون فوق ما تشعرون . والحقّ أنى لا أفهم لِمَ قدرة هذا الأبله على البكاء مرتبطة بقدرة الكلاب على امتصاص القصب . خاطرٌ هجم علىّ من جانبٍ غامض .

هـو   ساخرا

صدقتِ .

سميرة

مهما تَقُل جميعاً فنى يقينى أنَّ وقوع الأمر الثانى ينشأ عنه وقوعُ الأمر الأول .

هـو

يقين مشكوك فيه .

سميرة

قلتُ : يقينى .

هـو

ولكنْ إذا بدا لكل واحد منّا أن يستقلّ بيقينٍ له فإلى أين مصيرنا ؟ إلى الشكّ العام .

سميرة

كلاّ ! إلى الأمل . [مهلة] [فى بطء شديد] الحقيقة ، أليست ذلك الوادى الشَّظف يُخْضِلهُ فيْضُ مشاهداتى الباطنة ؟

هــو

أفّ لهذا الكلام المعقَّد ! [يهم بالانصراف من حيث جاء] .

سميرة

تريدون الأمور واضحةً [«هو» يلبث فى مكانه] خوفاً على سلامة أذهانكم . أينبغى لكل أمر يحصل أن ينساق إلى ناحيةٍ معلومة فى ملتويات أفهامكم تنتظره ؟ [فى سخرية] متاع يندرج فى خزانة ! لا شىء أكرهُ إلى الحياة من إطار يُعَدُّ لمجراها ، إنَّ الروح والفكر مع ما يجيش فيهما من نزعات ووثبات يُنكران السدَّ والحدّ . إنَّكم تفتكون بهما .

هــو — فى ضجر ، يشير فى عنف

كفى !

سميرة — آمرة فى لهف

أعِدْ هذه الكلمة !

هــو

لِمَ ؟

سميرة — آمرة

أعــدْ .

هــو — فى شىء من الخشية

كفى . . .

سميرة

لا . أعدها بالنبرة نفسها وأرْدِفْها بالإشارة عينها . . . أدنُ منى . . . لا تَخَفْ .

هــو — يدنو منها ويشير كالمرة الأولى

كفى !

سميرة   بالنبرة نفسها والإشارة عينها

كفى !

هــو   كمن يخاطب معتوها

مساء الخير !

سميرة   تهجم عليه وتمسك بثيابه وترسل طرفها فى وجهه ثم فى جسمه منتفضة

أين سميرة ؟

هــو

من سميرة ؟

سميرة

هل عرفت سميرتين ؟

هــو   ينكس رأسه ثم يرفعه ويحدق الى وجه المرأة ويقول فى لهجة المدهوش

أنت ؟ !

سميرة

لا تجيب ، وعيناها تكادان تقتلانه

هــو   يواصل كلامه .

هنا ؟ وهكذا ؟

سميرة

الحبُّ مرحلة إلى الفناء ! [مهلة] أمرٌ آخَر غريب .

من الآن فصاعداً ينظر «هو» الى سميرة وجلا ، زائغ البصر ، مختلج النفس . يحرك يديه الحين بعد الحين فى تهيج ، ولكن التحريك ليس فيه غلو . وجهه الى الجمهور وسميرة ظهرها الى الجمهور بحيث لا يُرى منها الا التفاتات يديها وكتفيها . وأما الأبله فيظل طوال حديث المرأة مبهوتا كالمستفيق على كره من حلم لذيذ والقصبة فى يده مائلة ممدودة نحو فمه . يشاهد ما يجرى وهو يتألم فى صمت . كل ذلك حتى يُسمع صوت الناى فتتبدل هيئات الأشخاص الثلاثة .

سميرة   فى هدوء ، متممة حديثها

... وما غرابتـه ؟ جَرَت الحوادث لى كما يجب أن تجرى . أحببتك ؟ فائتمنتك على ما تملكه يداى حتى أتى يوم قلتَ لى فيه : كفى ! وأشرتَ على نحو ما أشرتَ الآن [تعيد اللفظة بالنبرة والإشارة مرتين كأن اللفظة شبح يلازم ذهنها] . . . فانطلقتُ عنك إلى حيث تنطلق المرأة التى تريد أن تُذلّ الرجال لأنّ واحداً منهم أذلّها . [مهلة] [فى سرعة] وأتانى يوماً فيمن كان يأتينى من الرجال الذين كنت ألهو بهم شاب صوته منحوت من صوتك ، فطربت لحديثه وأنا لا أعلم السبب . وأردتُ أن اطرب فوق ماطربت [مهلة] [فى تهيج] أممنوع هذا ؟ [فى بطء] فعلّمته الكلمات التى كنتَ تنطق بها وأنت مائل علىّ . . . ظلّ عريض مطروح على صورةٍ ناصعة . وما كنتُ لأذكرَ أنّها منك ، لأنّ نفسى كانت شربتها فطوتها أضلعى ، ونشرتها شفتا قلبى . وإذا الشاب يوماً يلفظ تلك الكلمات فى ذلك الصوت . . . ذلك الصوت ، وهو مائل علىّ . فإذا بك تتمثّلُ لى دَفعَةً ، فكنتَ كالنار تُرفع من بعيد للتائه المطمئن . . . أنتَ ، أنتَ الذى أشربنى تلك الكلمات ، أنت الذى قال لى . كفى ! بذلك الصوت [تشير على نحو ما كان أشار] أنت منقاد لى مرةً أخـرى ، وتظفر بى ؟ . . . فخَنَقْتُهُ ! [« هو » يتراجع ويرفع يده كأنه يرد شبحا] [سميرة تواصل كلامها] إنّ أمور القلب لاتنقضى إلاّ بالخنق ! [مهلة] منذ ذلك اليوم أشرقتْ نجاتى ، إذ غاب الذى كان يحسُّ من نفسى وانطفأ الذى كان يشتعل . والآن أعيش فى الثلج . . . إبعدْ [تلتفت الى الأبله وتصيح] إضحك !

الأبله

يضحك فى تراخٍ

سميرة

هذه الضحكة هى التى تَثْلُجنى ، كلّ يوم ، كلّ لحظة . أراك دهشاً لأنّ بيتنا بيئة إحساس محض . . . إلاّ أنه إحساس لا يبلغ الاحتراق . أمّا أنا فقد جُبلت من نارٍ فيأكل بعضى بعضاً . [مهلة] إنّما أحيا ، والثّلجُ من حولى ، طَيْفَ شجرةٍ جرداء !

هــو

ولكنْ ألا تهفو نفسكِ إلى الدفء أحيانًا ؟

سميرة — في استرخاء

تغالبني فتهفو ، غير أنّ الذي يُدفئنا الشمس ، ولذَّة الشمس في حُرْقتها .

هــو

بقليلٍ من التعقّل تتجنّبين الحُرقة .

سميرة

التعقّل جُعِل لمن يحسِب أنّه يحسّ . مثلي لا بُدَّ له من الاحتراق .

هــو

إنك مسرفة .

سميرة

كنتُ كذلك لمّا كنت إنسانة ، لمّا كنت أحبُّك ، أيَّامَ احترقت .

هــو

كم أَودُّ أن أبذل لكِ الدفء .

سميرة

مثلك يُحرق ولا يُدفئ .

هــو

علِّميني كيف أدفئ .

سميرة

فات الأوان . ما أعرف اليوم إلا كيف أُحرِق ، أفَلَم أتخرَّجْ على يديك ؟ ولِمَ تريد العودة إلى ما كان ؟ هل انتهى إحساسك إلى أقصاه ؟ كلاّ ، بل تراني أحاول النجاة

من أرضكم فأسمو عليكم ، فتندم على تهيئتك لى هذه القدرة . [فى شدة] إبعدْ ! [مهلة] إنّما حياتى فى الثلج .

هــو

بينكِ و بين الثلج لا أبرح قائمًا .

سميرة

بينى و بين الدفء رائحة حريق .

هــو

ولكنْ . . قلبُك .

سميرة فى غير عنابة

قلبى ؟ [مهلة] لفظ طالما أداره لسانى حتى ضاع معناه .

هــو

سمــيرة !

سميرة

ألم أقل لك إنى لست أنا . هذا اسم فَنِى .

هــو

ولكن . . .

سميرة

إنّك تكثر الاستدراك . ألا تستطيع إطلاقَ الكلام ؟

هــو

أما تعرفين أنَّ كل شىء مقيَّد ؟ [صمت] هل من شىء يبطل عنده الاستدراك ؟

سميرة بعد مهلة ، فى بطء ثقيل

إذا احترق . [مهلة] [فى تلهف] قلبى ! . .

هـــو في لهجة من لا يسلم بحصول أمر

لفظ ضاع معناه .

سميرة في لهجة من يقيم الحجة

ألا ترى البدويَّ يتأمّل الصحراء ليلَه ونهارَه ، إذا سئل عن لون رمالها تلعثم ؟

هـــو

قد عرفتك امرأةً لا تحمل كلَّ هذا القدر من العلم . فمن أين أتاك ؟

سميرة في بطء

أمّا للحُرَقِ فَيْض ؟ [مهلة] [في تلهف] قلبي ! . .

هـــو في لهجة الحائر

لفظ ضاع معناه . . . ولكنّ هنالك ألفاظاً لا تموت . هـذه لفظة الله لا ينفكُّ الخلقُ يذكرونها ، أفلا يزال اللهُ اللهَ ؟

سميرة

كما أنَّ القلب لا يزال على حروفه . [تنظر اليه تائهة البصر] .

هـــو يدنو منها ويهمس اليها يغريها

الدفء ! الدفء !

سميرة تحول نظرها عنه كأنها تخاف أن تلين لكلامه. على أنها لا تبتعد عنه . تُظهر أنها منجذبة

ذلك وهم .

هـــو يقنعها

لولا السراب أيّة قافلةٍ لا يَنْهكها طولُ الرحلة : ساعةَ اليأس — إذا وارت البئر كنزها عن الأعين القلقة كأنها فتاة غضة خَفِرَة ، أو أمست كعجوزٍ تشنّج جلدها لا تبذل سوى الجفاف — يضحك السراب فتعلو الهمم .

سميرة

إنّي عرفت ذلك السراب ، بل شربت منه . وكان الماء أُجاجاً على لذّة . وإنى أودّ لو أرتشفه مرةً أخرى . آه ! حتى هـذا يفوتنى اليوم . [مهلة] [فى بطء] الحبّ مُعترَكٌ قتّلاه الأوهام .

هـو يدنو منها ، يقنعها

الشعورُ عُكّازُ المرأة .

سميرة تنظر اليه فى هياج

وما هو للرجل ؟

هـو

معراجُه إذا أدرك جوهرَه .

سميرة

ومتى أدركتَه ؟

هـو

الليـلةَ .

سميرة

شىء تمّ بعد حين تمامه .

هـو مدافعا

من ذا يرى أنْ ليس للعنب نشوة من بعد نضجِه ؟

سميرة نافيـة

فى ظنّى أن المرأة جُعلت لتحيا بالحب ، وقد مِتُّ به . وهأنت ذا كأنك تحيا به عنى . . . إنّ الأمور تنقلب أوضاعُها على أيديكم ، لأنّكم يُعوزكم الخلوصُ إلى أسرارها .

هـو

ما أغلظَ كلامَك !

سميرة

ولم أنتهِ بعد . [مهلة] أصبتَ امرأةً تأتيك راضيةً فَرِحة ، فقلتَ مُتعة . وما كنتَ لتقوى على النزول إلى مضطرَب الحياة ، فتعرفَ مَرَحها ، فتقولَ نِعمة . . . المرأة عندكم زهرة تُقتلع لأنّ إناثَكم لم يعلّمنكم أنها تُقطف . وأنّى لهنّ أن يفعلنَ وهنّ يخشَيْنكم أبداً . . . فى عُرفكم أنّ نساءكم يَهبْنَ لكم أنفسهنّ . ما أسخفَكم ! إنهنّ يفرُشنَها لكم . [مهلة] أمّا أنا فقد أردتُ أن أشذّ عنهنّ فوهبت لك نفسى حقًّا . فرُحتُ ضحيّـةَ ادّعاء جديدٍ للمرأة .

هنا يعلو صوت ناى من النافذة المنارة . صـوت خفيت يظل دقيقة . يلتفت الأبله وسميرة و « هو » الى النافذة . الأبله ينظر شزراً ويطرح بالقصبة التى بيده أرضا . سميرة تضم يديها الى صدرها كالمصلية . « هو » ينظر كالمأخوذ .

سميرة لـ « هو »

كم يشغلك الناى !

هـو

إنه لجميلُ المدّات !

سميرة كأنها فى وجد ، شاخصة الى النافذة

إنها لضلوعى تنقصف مصعّدةً فى معارج الهواء الصافى . وكم يَلذّ لى أن تُفلت ضلوعى من بين جوانبى ! هل تَدرى ما الإفلات مما يلازمك على كُرهٍ منك ؟ إنّ هذا الناى يُعيننى على النجاة من الأرض . ولذلك ألبث فى هذا المكان ، تحت هذه النافذة . . . صاحبُ الناى ينفخ فيه كل ليلة ، فأحبُّ أن أعيرَه ضلوعى وهو لا يدرى . ولو درى لهشّم حُلمى . وما أشدّ حاجتى اليه ! آه ، إنى أحسّ الحين بعد الحين كأنّ ضلوعى تريد أن تفلق صدرى لعطشٍ فيه أعرفه وأهابه .

هـو يشير نحو الأبله كأنه يقول : ألا يُسكن هذا عطشـك

وهذا ؟

سميرة

ضَحِكُه لا يقوى على تسكين ذاك العطش ، ولا سيّما فى الليل . برودة إلى برودة تهدّ العزم ، عزم امرأة .

هـو

وفيمَ كلُّ هذا ؟

سميرة

أنت لا تفهمنى وأنا أفهمك .

هـو يشير نحو الأبله

وهل هذا يفهمك ؟

سميرة

إنّ جهله بى من باب آخر .

هنا يعلو صوت الناى ، فيتمتم الأبله .

هـو ينظر الى سميرة ويشير نحو الأبله

ماذا ؟

سميرة

كثيراً ما يضِجّ إذا سمع الناى .

هـو

أتُرى صوت الناى يَغيظه ؟

سميرة

أتظنه يُدرك أنّ الناى يسعدنى على عشرته ؟ سترى أنك مخطىء . [تلتفت الى الأبله تأمره]
إضحك !

الأبله

لا يضحك بل ينظر الى الأرض واجما

سميرة التمثيل نفسه

إضحك !

الأبله

التمثيل نفسه

هـــو لسميره

لعلَّه يفهمك وأنتِ لا تفهمينه .

سميرة

تظهر التعجب والتفكر

هـــو يواصل فكرته

علَّمتنى اليوم أنّ الحياة مجموعة سوء تفاهم .

سميرة في لهجة المنكر ، تشير نحو الأبله

إلاَّ أنه خفيف العقل .

هـــو

كما أنكِ واهمة .

سميرة

كما أنكَ مغرور .

هـــو بعد مهلة قصيرة

ثلاث أحوال من منزلةٍ واحدة .

هنا يعلو صوت الناى مرة ثالثة ، ولـكن نصف دقيقة فقط .

سميرة　　في أثناء ذلك ، لـ « هو »

أسكت الآن !

هـو　　بعد سكوت الناى

حقاً ! إنه لأخاذ .

سميرة

إنه لمعطاء !

هـو

يبذل لك النجاة .

سميرة

من الاختناق .

هـو　　بعد مهلة

مسكينة !

سميره لا تحفل بهذا الرد ، بل تتطلع الى النافذة فى شغف .
وأما الأبله فيرمقها مغيظا .



المشهد الثالث

سميرة ، هــو

« هو » يدنو من سميرة ويجعل كفه على كتفها ويجذبها بلطف الى الطريق المظلم وهى منقادة مذهولة وعينها منصرفة الى النافذة ووجهها محول الى مؤخر المسرح لا الى الجمهور . يرى الأبله هــذا فينهض يتبعها بحركات واشارات ضالة . وبعد أربع خطوات أو خمس يعود أدراجه وينزوى عن المسرح ناحية الغيابات (الكوليس les coulisses) . فى هذه اللحظة يعلو صوت الناى غاية فى الشجى .

سميرة

أمهلْ .

يقفان . يظل صوت الناى دقيقة كاملة

هــو بعد سكوت الناى

أصبحتِ لا حاجةَ لك فيه .

يعود الناى دقيقــة أخرى كاملة الى مداته الشجية . تستمع سميرة اليه كأنها تنتفض .

دعْنى أودّعُه . . . إنه قام مقام عكازٍ لى دهراً ... ولم ينحطم قط . وما يُدرينى ؟ ربما عدتُ اليه . . . أفلا أفارقه على وداد ؟ [فى بطء] لا تزال بنا حاجة إلى ما ملأ أيدينا مِمّا لم نؤمِّل [تميل بأذنها نحو النافذة كأنها تريد أن تسمع صوتا منقبضا] .

فى هذه اللحظة عينها يُسمع من داخل الغيابات يمينا — حيث الأبله منزور — نشيج رقيق يقارب مدات الناى الشجية .

سميرة

إسمع الناى يَبكينى .

هــو يرهف الأذن

لا . إنّ هذا بكاء الأبله [مهلة قصيره] عدوٌ الناى .

سميرة ترهف الأذن وتلوى رأسها تحدق الى داخل الغيابات من اليمين وتبسط يدها كأنها تدفع شيئاً مكروها . فى هذه اللحظة يرسل الناى بعض مدات مبهمة تشابه نشيج الأبله .

هــو يواصل حديثه

عجباً ! إنّ الناى يراسل الأبله فى البكاء . [مهلة قصيرة] عدوّان اتّفقا .

سميرة

ألم نتّفق نحن ؟

هــو

جمعتنا اللذةُ وجمعها الألم .



المشـــهد الرابع

الأبله ، سميرة ، هــو

تنفض سميرة كتفها من كف « هو » وتسرع نحو الأبله ، فتجذبه من يده فى شىء من العنف حتى وسط المسرح ، ثم تدور بحيث تجعل ظهرها ناحية الجانب المنار وظهر الأبله ناحية الجـانب المظلم على بعض خطوات أمام « هو » .

سميرة للأبله

أتبكى ؟ ومن علَّمك البكاء ؟

الأبله

ينظر اليها فى تضاؤل

سميرة للأبله ، فى شدة

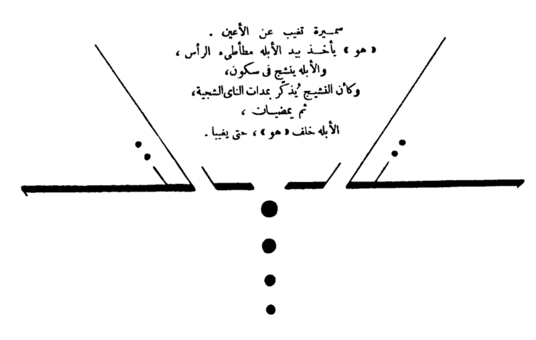
إنّ الكلاب تمتصّ القصب إذَنْ ! وقد فاتنى قتلُها . [ثم لـ « هو » فى لين] أحرقتُهُ وهو يثلجُنى . [ثم للأبله فى تراخ] بكاؤك منع البعث !

يتراجع الأبله حتى يقرب من « هو » .

سميرة   والأبله يتراجع

ها ! ها ! أنت مثلنا . تبكي وتضحك . ولكن ضحكك أكثر من بكائك . فاذكر ، إذ كنتَ في بدء أمرك ، أنّ للبكاء الغلبةَ أبداً . [مهلة]   [للأبله و «هو» ، وهما واقفان جنباً الى جنب] سيثلُج بعضي بعضاً منذ الآن . . . [في لهجة التائه] إذا قدرت . [تتراجع حتى تكاد تلصق بالغيابات] .

[في هدوء تضطرب فيه مأساة، مشيرة الى الطريق الذي هما فيه] خذا هذا الطريق ... الذي لا نور فيه ... الذي ينحدر .



رقم هذه النسخة

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

quand les chemins divergent

pièce en 1 acte

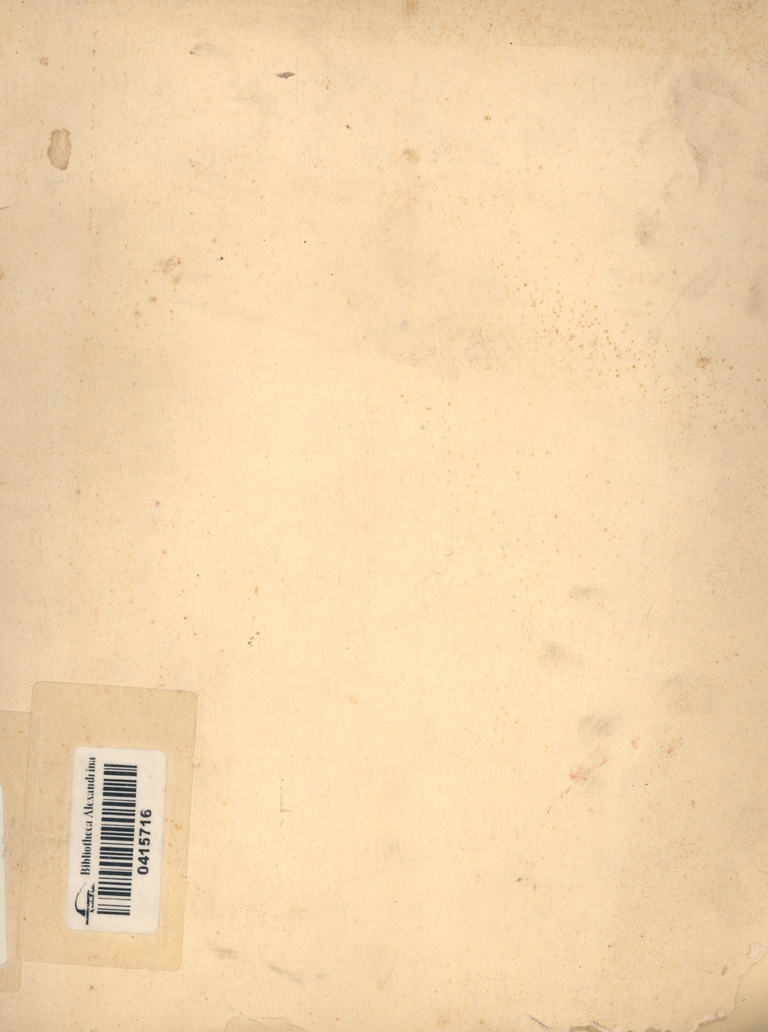
par

Bishr Farès



achevé d'imprimer le 7 mars 1938
par l'imprimerie "al-Maaref"

Le Caire


Bibliotheca Alexandrina
0415716